- ١٩ -

أقسام القرآن [١]

يختلف الاستعداد النفسى عند الفرد فى تقبله للحق وانقياده لنوره ، فالنفس الصافية التى لم تتدنس فطرتها بالرجس تستجيب للهدى ، وتفتح قلبها لإشعاعه ، ويكفيها فى الانصياع إليه اللَّمحة والإشارة ، أما النفس التى رانت عليها سحابة الجهل ، وغشيتها ظلمة الباطل فلا يهتز قلبها إلا بمطارق الزجر ، وصيغ التأكيد ، حتى يتزعزع نكيرها ، والقَسَم فى الخطاب من أساليب التأكيد التى يتخللها البرهان المفحم ، والاستدراج بالخصم إلى الاعتراف بما يجحد .

* * *

تعرف القَسَم وصيغته

والأقسام : جمع قَسَم - بفتح السين - بمعنى الحلف واليمين ، والصيغة الأصلية للقَسَم أن يؤتى بالفعل « أقسم » أو « أحلف » متعديًا بالباء إلى المُقْسَم به ، ثم يأتى المُقْسَم عليه ، وهو المسمى بجواب القَسَم ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ، لَا يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [٢] .

فأجزاء صيغة القَسَم ثلاثة :

١ - الفعل الذى يتعدى بالباء .

٢ - والمُقْسَم به .

٣ - والمُقْسَم عليه .

ولما كان القَسَم يكثر فى الكلام ، اختُصِر فصار فعل القَسَم يُحذف ويُكتفى

---

(١) أفرد هذا الفصل بالبحث العلامة ابن القيم فى كتابه « أقسام القرآن » المسمى بـ « التبيان » وهو كتاب فريد فى بابه اختصرنا منه هذا البحث .

(٢) النحل : ٣٨

بالباء [1] ثم عُوِّض عن الباء بالواو فى الأسماء الظاهرة كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ [2] ، وبالتاء فى لفظ الجلالة كقوله : ﴿ وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم ﴾ [3] ، وهذا قليل ، أما الواو فكثيرة .

والقَسَم واليمين واحد : ويعرف بأنه : ربط النفس ، بالامتناع عن شىء أو الإقدام عليه ، بمعنى معظَّم عند الحالف حقيقة أو اعتقادًا ، وسُمِىَ الحَلْف يمينًا لأن العرب كان أحدهم يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف .

* * *

فائدة القَسَم فى القرآن

تمتاز اللُّغة العربية بدقة التعبير واختلاف الأساليب بتنوع الأغراض ، وللمخاطَب حالات مختلفة ، هى المسماة فى المعانى بأضرب الخبر الثلاثة : الابتدائى ، والطلبى ، والإنكارى .

فقد يكون المخاطب خالى الذهن من الحكم فيُلقى إليه الكلام غفلاً من التأكيد ، ويسمى هذا الضرب : ابتدائيًا .

وقد يكون مترددًا فى ثبوت الحكم وعدمه ، فيحسن تقوية الحكم له بمؤكد ليزيل تردده ، ويسمى هذا الضرب : طلبيًّا .

وقد يكون منكرًا للحكم ، فيجب أن يؤكَد له الكلام بقدر إنكاره قوة وضعفًا ، ويسمى هذا الضرب : إنكاريًّا .

والقَسَم من المؤكدات المشهورة التى تمكن الشىء فى النفس وتقويه ، وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة ، ووقف الناس منه مواقف متباينة ، فمنهم الشاك ، ومنهم المنكر ، ومنهم الخصم الألد ، فالقَسَم فى كلام الله يُزيل الشكوك ، ويُحبط الشبهات ، ويُقيم الحجة ، ويُؤكد الأخبار ، ويقرر الحكم فى أكمل صورة .

* * *

---

(١) والباء لم ترد فى القرآن مع فعل القَسَم ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ (النور : ٥٣) .

(٢) الليل : ١ (٣) الأنبياء : ٥٧

المُقْسَم به فى القرآن

يُقْسِم الله تعالى بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته ، أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته ، وإقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنه من عظيم آياته ، وقد أقسم الله تعالى بنفسه فى القرآن فى سبعة مواضع :

١ - فى قوله : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ، قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ (١) .

٢ - وقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ (٢) .

٣ - وقوله : ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ، قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ (٣) .

وفى هذه الثلاثة أمر الله نبيه ﷺ أن يُقْسِم به .

٤ - وقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ (٤) .

٥ - وقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٥) .

٦ - وقوله : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ (٦) .

٧ - وقوله : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ (٧) .

وسائر القَسَم فى القرآن بمخلوقاته سبحانه ، كقوله : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ﴾ (٨) .

وقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾ (٩) .

وقوله : ﴿ وَالفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ (١٠) .

وقوله : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾ (١١) .

---

(١) التغابن : ٧ (٢) سبأ : ٣ (٣) يونس : ٥٣

(٤) مريم : ٦٨ (٥) الحجر : ٩٢ (٦) النساء : ٦٥

(٧) المعارج : ٤٠ (٨) الشمس : ١ - ٢ (٩) الليل : ١ - ٣

(١٠) الفجر : ١ - ٢ (١١) التكوير : ١٥

وقوله : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ ﴾ [1] ، وهذا هو الكثير فى القرآن .

ولله أن يحلف بما شاء ، أما حلف العباد بغير الله فهو ضرب من الشرك ، فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَن حلف بغير الله فقد كفر - أو شرك » [2] ، وإنما أقسم الله بمخلوقاته لأنها تدل على بارئها ، وهو الله تعالى ، وللإشارة إلى فضيلتها ومنفعتها ليعتبر الناس بها ، وعن الحسن قال : « إن الله يُقسم بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يُقسم إلا بالله » [3] .

* * *

أنواع القَسَم

القَسَم : إما ظاهر ، وإما مضمر .

١ - **فالظاهر** : - هو ما صُرِّح فيه بفعل القَسَم ، وصُرِّح فيه بالمُقْسَم به ، ومنه ما حُذِفَ فيه فعل القَسَم كما هو الغائب اكتفاءً بالجار من الياء أو الواو أو التاء .

وقد أدخلت « لا » النافية على فعل القَسَم فى بعض المواضع ، كقوله تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [4] فقيل : « لا » فى الموضعين نافية لمحذوف يناسب المقام ، والتقدير مثلاً : لا صحة لما تزعمون أنه لا حساب ولا عقاب ، ثم استأنف فقال : أقسم بيوم القيامة ، وبالنفس اللوَّامة ، أنكم ستُبعثون ، وقيل : « لا » لنفى القَسَم كأنه قال : لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس ، ولكنى أسألك غير مُقْسم ، أتحسب أنَّا لا نجمع عظامك إذا تفرَّقت بالموت؟ إن الأمر من الظهور بحيث لا يحتاج إلى قَسَم ، وقيل : « لا » زائدة - وجواب القَسَم فى الآية المذكورة محذوف دل عليه قوله بعد : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ ﴾ ... إلخ ، والتقدير : لتبعثن ولتحاسبن .

٢ - والقَسَم المضمَر هو ما لم يُصرَّح فيه بفعل القسم ولا بِالمُقْسَم به ، وإنما تدل

---

(١) التين : ١ - ٢ (٢) رواه الترمذى وحسنه ، وصححه الحاكم .
(٣) أخرجه ابن أبى حاتم . (٤) القيامة : ١ - ٢

عليه اللام المؤكدة التى تدخل على جواب القَسَم كقوله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ (١) أى والله لتبلون .

* * *

أحوال المُقْسَم عليه

١ - المُقْسَم عليه يُراد بالقَسَم توكيده وتحقيقه ، فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك ، كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها .

٢ - وجواب القَسَم يُذكر تارة - وهو الغالب - وتارة يُحذف ، كما يُحذف جواب « لو » كثيرًا ، كقوله : ﴿ كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ (٢) وحذف مثل هذا من أحسن الأساليب ، لأنه يدل على التفخيم والتعظيم ، فالتقدير مثلاً : لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين لفعلتم ما لا يوصف من الخير ، فحذف جواب القَسَم كقوله : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِى ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ (٣) فالمراد بالقَسَم أن الزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل أن يُقْسِم الرب عز وجل به ، فلا يحتاج إلى جواب ، وقيل : الجواب محذوف ، أى : لتعذبن يا كفار مكة ، وقيل : مذكور ، وهو قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (٤) والصحيح المناسب أنه لا يحتاج إلى جواب .

وقد يُحذف الجواب لدلالة المذكور عليه ، كقوله تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ (٥) فجواب القَسَم محذوف دلّ عليه قوله بعد : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ (٦) ... إلخ ، والتقدير : لتبعثن ولتحاسبن .

٣ - والماضى المثبت المتصرف الذى لم يتقدم معموله إذا وقع جوابًا للقَسَم تلزمه اللام و« قد » ، ولا يجوز الاقتصار على إحداهما إلا عند طول الكلام ، كقوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا *

---

(١) آل عمران : ١٨٦ (٢) التكاثر : ٥ (٣) الفجر : ١ - ٥
(٤) الفجر : ١٤ (٥) القيامة : ١ - ٢ (٦) القيامة : ٣

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ (١) فجواب القَسَم : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ حُذفت منه اللام لطول الكلام .

ولذلك قالوا فى قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ (٢) : إن الأحسن أن يكون هذا القَسَم مستغنيًا عن الجواب ، لأن القصد التنبيه على المُقْسَم به ، وأنه من آيات الرب العظيمة ، وقيل : الجواب محذوف دَلَّ عليه : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ أى أنهم ملعونون ، يعنى كفار مكة كما لُعِنَ أصحاب الأخدود ، وقيل : حُذِفَ صدره ، وتقديره : لقد قُتِلَ ، لأن الفعل الماضى إذا وقع جوابًا للقَسَم تلزمه اللام و« قد » ، ولا يجوز الاقتصار على إحداهما إلا عند طول الكلام ،كما سبق فى قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ .

٤ - ويُقْسِم الله على أصول الإيمان التى يجب على الخلق معرفتها فتارة يُقْسِم على التوحيد كقوله : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ (٣) .

وتارة يُقْسِم على أن القرآن حق كقوله تعالى : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ (٤) .

وتارة على أن الرسول حق كقوله : ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٥) .

وتارة على الجزاء والوعد والوعيد ، كقوله : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ (٦) .

---

(١) الشمس : ١ - ٩ (٢) البروج : ١ - ٤ (٣) الصافات : ١ - ٤
(٤) الواقعة : ٧٥ - ٧٧ (٥) يس : ١ - ٣ (٦) الذاريات : ١ - ٦

وتارة على حال الإنسان ، كقوله : ﴿ وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ (١) .

٥ - والقَسَم إما على جملة خبرية - وهو الغالب - كقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ (٢) ، وإما على جملة طلبية فى المعنى كقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) . . لأن المراد التهديد والوعيد .

* * *

القَسَم والشرط

يجتمع القَسَم والشرط فيدخل كل منهما على الآخر فيكون الجواب للمتقدم منهما - قَسَمًا كان أو شرطًا - ويُغنى عن جواب الآخر .

فإن تقدم القَسَم على الشرط كان الجواب للقَسَم وأغنى عن جواب الشرط، كقوله تعالى : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾ (٤) إذ التقدير : والله لئن لم تنته .

واللام الداخلة على الشرط ليست بلام جواب القَسَم كالتى فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم ﴾ (٥) ولكنها اللام الداخلة على أداة شرط للإيذان بأن الجواب بعدها مبنى على قَسَم قبلها لا على الشرط ، وتسمى اللام المؤذنة ، وتسمى كذلك الموطئة ، لأنها وطأت الجواب للقَسَم ، أى مهدئة له ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ، وَلَئِن قُوتِلُواْ لا يَنصُرُونَهُمْ ، وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ﴾ (٦) ، وأكثر ما تدخل اللام الموطئة على « إن » الشرطية ، وقد تدخل على غيرها .

ولا يقال : إن الجملة الشرطية هى جواب القَسَم المقدَّر، فإن الشرط لا يصلح أن

---

(١) الليل : ١ - ٤ (٢) الذاريات : ٢٣ (٣) الحجر : ٩٢ - ٩٣
(٤) مريم : ٤٦ (٥) الأنبياء : ٥٧ (٦) الحشر : ١٢

يكون جوابًا ، لأن الجواب لا يكون إلا خبراً ، والشرط إنشاء ، وعلى هذا فإن قوله تعالى فى المثال الأول : ﴿ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾ يكون جوابًا للقَسَم المقدَّر أغنى عن جواب الشرط .

ودخول اللام الموطئة للقَسَم على الشرط ليس واجبًا ، فقد تُحذف مع كون القَسَم مقدرًا قبل الشرط ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) .

والذى يدل على أن الجواب للقَسَم لا للشرط دخول اللام فيه وأنه ليس بمجزوم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ (٢) ولو كانت جملة ﴿ لَا يَأْتُونَ ﴾ جوابًا للشرط لجزم الفعل .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٣) ، فاللام فى : ﴿ وَلَئِنْ ﴾ هى الموطئة للقَسَم ، واللام فى : ﴿ لإِلَى اللهِ ﴾ هى لام القَسَم ، أى الواقعة فى الجواب ، ولم تدخل نون التوكيد على الفعل (٤) للفصل بينه وبين اللام بالجار والمجرور ، والأصل : لئن متم أو قتلتم لتحشرون إلى الله .

* * *

● إجراء بعض الأفعال مجرى القَسَم :

إذا كان القَسَم يأتى لتأكيد المُقْسَم عليه فإن بعض الأفعال يجرى مجراه إذا كان سياق الكلام فى معناه ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ (٥) ، فاللام فى قوله : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ لام القسم ، والجملة بعدها جواب القسم ، لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف .

---

(١) المائدة : ٧٣ (٢) الإسراء : ٨٨ (٣) آل عمران : ١٥٨

(٤) يجب توكيد الفعل إذا كان مثبتًا مستقبلاً ، جواباً لَقَسَم ، غير مفصول من لامه بفاصل ، وجواب القَسَم هنا وإن كان مثبتًا مستقبلاً ، فإنه قد فُصِلَ بينه وبين اللام بالجار والمجرور .

(٥) آل عمران : ١٨٧

وحمل المفسرون على هذا قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ميثَاقَكُم لا تَسْفكُونَ دمَاءَكُمْ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ منكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّكُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (٣) .

* * *

(١) البقرة : ٨٣ (٢) البقرة : ٨٤ (٣) النور : ٥٥

obeikandl.com